دور التدبر في فهم المقصود من الخطاب القرآني

أ. جميلة موجاري
جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية – قسنطينة–

ملخص :

الحكمة من إنزال القرآن الكريم هي الاهتداء به، وطريق هذا الاهتداء تدبر آياته ؛ والمقصود بالتدبر هو النظر وإعمال العقل لفهم الخطاب القرآني، وهذا التدبر مراتب أدناها ما يفهمه المخاطب البسيط وأقصاها تفسير الخطاب وتبليغه للغير. إلاّ أن الملاحظ أن دور التدبر الحقيقي بجميع مراتبه توصل حتما إلى فهم المقصود من الخطاب القرآني قال –عزّ وجل– : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾[سورة ص: الآية 29].

الملخص باللغة الأجنبية :

The wisdom behind revealing the Holy Quran is to be guided by it and the path of this guidance is to meditate its verses; and what is meant by meditation is to contemplate and to use the mind in order to understand the Quranic speech. This meditation has many ranks their lowest is what can be understood by the simple receiver and their highest is interpreting the speech and convey it to others. But what is noticed is that the real rule of meditation including all its ranks has certainly reached understanding the purpose of the Quranic speech, Allah all Mighty said : **"A Book We have sent down to you, Blessed that they may ponder over its ayat and that man endowed with intellects would remind themselves."(Quran 38-29)**

مقدمـة :

يشير القرآن الكريم إلى أنّ الفهم الصحيح للمقصود من الخطاب القرآني إنّما يقوم على التدبر، قال تعالى: ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾[1].

فإذا حصل التدبر لم يوجد في القرآن اختلاف البتة؛ لأنّ الاختلاف إنما جاء من الوقوف عند بعض الظواهر وضرب بعضها ببعض، وعدم التدبر في فقه النصوص حتى تتفق في المقصود منها، وذلك بتفسير بعضها ببعض[2]، وهذا هو الحد الأقصى للتدبر.

أما الحد الأدْنى له فهو الذي قصده الشعراوي –رحمه الله تعالى– بقوله : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾[3]، تكريم للإنسان، فكأن الإنسان قد خلقه الله ليستقبل الأشياء بفكر، لو استعمله استعمالا حقيقيا لانتهى إلى مطلوبات الحق، وهذه شهادة للإنسان، فكأن الإنسان مزود بآلة فكرية، هذه الآلة الفكرية لو استعملها لوصل إلى حقائق الأشياء، والحق لا يريد منا إلا أن نعمل هذه الآلة : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾[4] [5].

إلاّ أن القاسم المشترك بين الحد الأقصى والحد الأدنى للتدبر؛ هو أن التدبر الحقيقي يوصل حتما إلى فهم المقصود من الخطاب القرآني، ولذلك قال –عزّ من قائل– في آخر نص نزل في هذه المسألة ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[6]، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه كما قال ابن كثير[7].

وهذا كلام مجمل عن دور التدبر في فهم المقصود من الخطاب القرآني، يحتاج إلى تفصيل يمكن تلخيصه في مطلبين :

أوّلهما : نحاول فيه فهم معنى التدبر كما جاء في القرآن الكريم.

وثانيهما : نذكر فيه نماذج من أقوال بعض العلماء المحققين عن التدبر.

---

(1)– سورة النساء : الآية 82.

(2)– انظر : الشاطبي (إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي أبو إسحاق)، الموافقات في أصول الشريعة، وعليه شرح جليل بقلم الشيخ عبد الله دراز، دار الحديث : القاهرة، 2006م، 266/3/2 بتصرف.

(3)– سورة النساء : الآية 82.

(4)– سورة النساء : الآية 82.

(5)– انظر : الشعراوي (محمد متولي) : خواطر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم، أخبار اليوم، قطاع الثقافة: الأزهر، 2488/4 بتصرف.

(6)– سورة محمد : الآية 24.

(7)– انظر : ابن كثير أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي : تفسير القرآن العظيم، ط2، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي : بيروت، 2002م، 379/5 بتصرف.

المطلب الأول : مفهوم التدبر من خلال القرآن الكريم :

ورد لفظ التدبر في القرآن الكريم في أربعة مواضع: في سورة النساء، وسورة المؤمنون، وسورة ص، وسورة محمد، وفق الترتيب التوفيقي للسور[1] في المصحف الشريف، أمّا الترتيب النزولي لها فهو كالآتي :

الموضع الأول : ذكر في سورة ص وهي سورة مكية[2]، قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾[3].

الموضع الثاني : ذكر في سورة المؤمنون وهي سورة مكية أيضا نزلت بعد سورة ص[4]، قال تعالى : ﴿ **أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين** ﴾[5].

الموضع الثالث : ذكر في سورة النساء وهي سورة مدنية[6]، قال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾[7].

الموضع الرابع : ذكر في سورة محمد وهي سورة مدنية أيضا نزلت بعد سورة النساء [8]، قال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[9].

و المتأمل في هذه النصوص يبدو له ما يلي :

- أن الحكمة من إنزال القرآن هي تدبر آياته، فلا بد من إعمال العقل وترك التقليد ليحصل التدبر المطلوب[10].

- فإذا حصل التدبر المطلوب أيقن الناس أن هذا القرآن هو كلام الله المعجز، وإذا لم يحصل فإن العلّة في القفل الذي على القلب[11].

---

(1)- للعلماء في ترتيب السور في المصحف الشريف قولان. والراجح أن ترتيب السور توقيفي.

(2)- انظر : السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) : الإتقان في علوم القرآن، تحقيق : فوّاز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي: بيروت، 2004م، ص38. ولُباب النقول في أسباب النزول، ط1، خرج أحاديثه أبو عبد الله محمود بن الجميل، مكتبة الصفا: القاهرة، 2002م، ص235.

(3)- الآية 29.

(4)- انظر : الإتقان : ص38 ولباب النقول : ص188.

(5)- الآية 68.

(6)- انظر : الإتقان : ص38. ولباب النقول : ص76.

(7)- الآية 82.

(8)- انظر : الإتقان : ص38. ولباب النقول : ص248.

(9)- الآية 24.

(10)- حسب ما جاء في القرآن المكي أي الموضع الأول والثاني.

(11)- وهذا حسب ما جاء في القرآن المدني، والمدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض والمدني بعضه مع بعض. انظر : الموافقات : 282/3/2.

وهذا المعنى الظاهر للتدبر من خلال هذه النصوص مجمل لا بد له من تفصيل يؤخذ من فهم كلّ نص في سياقه الخاص ؛ ويمكن استخلاص ذلك من بعض التفاسير المعتبرة كتفسير الطبري وهو عمدة المفسرين، وتفسير ابن كثير وتفسير القاسمي وتفسير الشعراوي :

أولا : تفسير قوله تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ﴾[1] :

* ورد في تفسير الطبري لقوله تعالى : ﴿ **مبارك ليدبروا آياته** ﴾[2]، أي ليتدبروا حجج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به[3].

* وجاء في تفسير القرآن العظيم : أنّه لما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾[4]، أي ذوو العقول، ولذلك قال الحسن البصري : والله ما تدبّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول : قرأت القرآن، ما يُرى له القرآن في خلق ولا عمل[5].

* وأما جمال الدين القاسمي فقد فسّره قائلا : أي لينظروا في ألفاظه وترتيبها ولوازمها فيستخرجوا منها علومًا بطريق الاستدلال[6].

والملاحظ أن جملة ما قاله هؤلاء المفسرين يدور حول ضرورة تدبر القرآن الكريم **[ليدبروا آياته]**[7]، فلذلك أنزل، وأن أثر ذلك التدبر يقتضي انعكاسه في خلق القارئ وعمله.

ثانيا : تفسير قوله تعالى : ﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾[8] :

قال ابن جرير : أفلم يتدبر هؤلاء المشركون تنزيل الله وكلامه، فيعلموا ما فيه من العبر، ويعرفوا حجج الله التي احتج بها عليهم فيه، أم جاءهم أمر ما لم يأت من قبلهم من أسلافهم، فاستكبروا عن ذلك وأعرضوا ؟ فقد جاءت الرسل من قبلهم، وأنزلت معهم الكتب.

---

(1)- سورة ص : الآية 29.

(2)- سورة ص : الآية 29.

(3)- انظر : الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) : جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق : أ.محمود شاكر، ط1، دار الإعلام : الأردن، دار ابن حزم : بيروت، 2002م، 187/23/12بتصرف.

(4)- سورة ص : الآية 29.

(5)- انظر : تفسير القرآن العظيم : 379/5 بتصرف.

(6)- انظر : القاسمي (محمد جمال الدين) : محاسن التأويل، تحقيق أحمد بن علي، حمدي صبح، دار الحديث : القاهرة، 2003م، 140/8 بتصرف.

(7)- سورة ص : الآية 29.

(8)- سورة المؤمنون : الآية 68.

ويحتمل أن يكون المعنى[1] بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين فتركوا لذلك التدبر وأعرضوا عنه، إذ لم يكن فيمن سلف من آبائهم ذلك، وقد رُوي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين** ﴾[2]: لعمري لقد جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، ولكن أو لم يأتهم ما لم يأت آباءهم الأولين! [3].

وقال ابن كثير: هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه،مع أنهم قد خُصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف ولاسيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله إليهم بقبولها وتفهمها والعمل بمقتضاها، وعن قتادة أنه قال إذا والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبّره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوه بما تشابه[4]، فهلكوا عند ذلك[5].

وقال الشعراوي : الاستفهام هنا للتوبيخ وللتقريع : ماذا جرى لهؤلاء ؟ أفلم يعقلوا القول الذي جاءهم في القرآن، وهم أمة الفصاحة والبلاغة والبيان، وأمة القول بكل فنونه حتى أقاموا له المواسم والمعارض وعلقوه على الجدار؟ لذلك لا يعقل ألاّ تفهموا القرآن، وقد جاءكم بأسلوب على مستوى أعلى من البلاغة والفصاحة، لا بد أنكم فهتموه ووعيتم ما فيه، إذن : ﴿ **أفلم يدبروا القول** ﴾[6] توبيخ، لأنهم فهموا القرآن، لكن حسدوا محمد ρ أن ينزل عليه، وأن ينال دونهم هذه المكانة[7].

والملاحظ من خلال هذا النص :

* إن الإعراض عن التدبر كان من طرف المشركين ؛ وقد وبخهم القرآن واستقبح منهم ذلك لأنّهم يملكون أداة التدبر.
* وكل من لم يتدبر القرآن يستحق التوبيخ وينكر منه ذلك، ولا عذر لأحد كائنا من كان في الإعراض عن هذا القرآن وعدم تدبّره.

---

(1)- وذلك إذا كان معنى "أم" في هذا الموضع بمعنى "بل" كما قال الطبري.

(2)- سورة المؤمنون : الآية 68

(3)- انظر : جامع البيان : 10/ 54/18 بتصرف.

(4)- وهذا دليل من النقل على وُجوب ردّ المتشابه من القرآن إلى المحكم لبيان معناه.

(5)- انظر : تفسير القرآن العظيم : 4/483-484 بتصرف.

(6)- سورة المؤمنون : الآية 68

(7)- انظر : تفسير الشعراوي : 16/10086-10088 بتصرف

ثالثا : تفسير قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[1].

قال الطبري : أي أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لاتساق معانيه وائتلاف أحكامه وتأييد بعضه بعضا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق؛ فإنّ ذلك لو كان من غير الله لاختلفت أحكامه وتناقضت معانيه وأبان بعضه عن فساد بعض.

فعن قتادة : أي أن قول الله لا يختلف، وهو حق ليس فيه باطل، وإن قول الناس يختلف.

وعن ابن زيد : إن القرآن لا يكذب بعضه بعضا، ولا ينقض بعضه بعضا، ما جهل الناس من أمر فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم فحق على المؤمن أن يقول كل من عند الله ويؤمن بالمتشابه، ولا يضرب بعضه ببعض، وإذا جهل أمرا ولم يعرفه أن يقول: الذي قال الله حق، ويعرف أن الله تعالى لم يقل قولا وينقضه.

وقال ابن كثير: فيها أمر بتدبر القرآن ونهي عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، فلا اختلاف فيه ولا اضطراب ولا تضاد لأنّه تنزيل من حكيم حميد، ولو كان مفتعلا مختلقا كما يقول بعض جهلة المشركين والمنافقين لوجدوا فيه اضطرابا وتضادا كثيرا، وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله، ومحكمه ومتشابهه[2] حق لذلك ردّ الراسخون في العلم المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قبولهم زيغ ردّوا المحكم إلى المتشابه فغووا، وعن رسول الله ρ قال : « إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا، إنما نزل يصدق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه »[3] [4].

وقال القاسمي : هذا إنكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان، ليعلموا كونه من عند الله، والتدبر أصله التأمل والنظر في أدبار الأمر وعواقبه خاصة، ثم استعمل في كل تأمل، سواء كان نظرا في حقيقة الشيء وأجزائه أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه.

وقد دلت الآية على وجوب النظر والاستدلال، وعلى القول بفساد التقليد، فعن ابن عون أنه قال: ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني: هذه السنة أن يعلموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا الناس عنه، ويدعوا

---

(1)- سورة النساء : الآية 82.

(2)- يطلق مصطلح التشابه على النص القرآني الذي استأثر الله بعلمه كآيات الصفات وعلى النص القرآني الذي يكون بيانه بنص قرآني آخر كالعام والخاص، والمطلق المقيد، والمجمل والمفصّل، وطريق بيان المتشابه التدبر، وممن حقق في هذه المسألة الشاطبي في الموافقات: 3/2 /64-65. وابن تيمية في مجموع الفتاوى. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المكتب التعليمي الشعوري بالمغرب: الرباط، 272/13. وقد أشار إلى ذلك الطبري في تفسيره : 227/3/3 وما بعده.

(3)- أحمد بن حنبل: مسند أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، دار الفكر، 181/2-182.

(4)- انظر : تفسير القرآن العظيم: 331/2 بتصرف.

الناس إلا من خير، وفي رواية فيتدبروه بدل يتفهموه[1][2].

وقال الشعراوي : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾[3]، أي كان الواجب عليهم أن يتدبروا القرآن، والتدبر هو كل أمر يعرض على العقل له فيه عمل فتفكر فيه لتنظر في دليل صدقه، هذه أول مرحلة و"تتدبر" تعني أن تنظر إلى أدبار الأشياء وأعقابها، فتدبرت تعني نظرت في أدبر الأشياء وحاولت أن ترى العواقب التي تحدث منها، وهذه مرحلة بعد التفكر، فالتفكر مطلوب أن تتذكر ما عرفته من قبل إن طرأ عليك نسيان.

والحق –سبحانه وتعالى– حينما يحث المستمعين للاستماع إلى كلامه وخاصة المخالفين لمنهجه أن يتدبروا القرآن، معناه أنه يحب منهم أن يعملوا عقولهم فيما يسمعون ؛ لأنّ الحق يعلم أنهم لو أعملوا عقولهم فيما يسمعون لانتهوا إلى قضية الحق بدون جدال.

وقوله الحق : ﴿ **أفلا يتدبرون** ﴾[4]، تأتي بعد تلك الآية، كأنها جاءت ودليلها يسبقها، فهم لو تدبروا القرآن لعلموا أن الرسول صادق في البلاغ عن الله وأن هذا الكلام حق[5].

والمتأمل في تفسير هذا النص يستنتج ما يلي :

– إلى جانب الأمر بتدبر القرآن الكريم من أجل الاهتداء إلى أن هذا القرآن حق ويهدي إلى الحق.

– فإنّ الاستعانة به هو ذاته في تدبر ما أغلق عنهم في مواضع أخرى[6] دليل آخر على كونه حقا.

رابعا : تفسير قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[7] :

قال الطبري : أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه – عليه الصلاة والسلام–، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون، أم

---

(1)– انظر : البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبه الجعفي) : صحيح البخاري، ط1، طبعة جديدة منقحة موافقة لترقيم وتبويب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الصفا : الأزهر، 2003م، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ρ. 422/2.

(2)– ينظر : محاسن التأويل : 240/3–241 بتصرف.

(3)– سورة النساء : الآية 82.

(4)– سورة النساء : الآية 82.

(5)– تفسير الشعراوي : 2476/4–2479 بتصرف.

(6)– وأول من دعى إلى هذا المنهج وهو تفسير القرآن بالقرآن؛ الرسول ρ في الحديث المتفق عليه، وذلك حينما وجه نظر الصحابة إلى تفسير الظلم من آية الأنعام بالشرك من آية لقمان.

(7)– سورة محمد: الآية 24.

أقفل[1] الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر.

فعن قتادة أنه قال : إذا والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله، لو تدبره القوم فعقلوه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا عند ذلك.

وعن خالد بن معدان أنه قال : إذا أراد الله بعبد خيرا أبصرت عيناه التي في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك طمس عليهما فذلك قوله تعالى : ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾[2] [3].

وقال ابن كثير : يقول تعالى آمرا بتدبر القرآن وتفهمه وناهيا عن الإعراض عنه، فإذا أعرضوا عنه فإن على القلوب أقفالها فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه[4].

والذي نستنتجه أن علّة عدم الاهتداء إلى المقصود من الخطاب، إنّما هو الزّيغ واتّباع الهوى[5]، لأنّ التدبر الحقيقي يفضي حتما إلى الحق وإلى فهم المقصود من الخطاب.

ولذلك قرر القرآن في أوّل خطاب له : إن الحكمة من إنزال الكتاب هي التدبر المفضي إلى الاهتداء. وهذا ما يؤكده العلماء المحققون وهم يتحدثون عن طريقة فهم المقصود من الخطاب كما سنرى في المطلب الآتي :

المطلب الثاني : نماذج من أقوال العلماء المحققين عن التدبر ودور في فهم الخطاب القرآني :

---

(1)- يقال : أقفلت الباب، وذلك جعل مثلا لكل مانع للإنسان من تعاطي فعل، ومنه القفل وجمعه أقفال، فيقال : فلان مقفل عن كذا. قال تعالى : ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾. انظر : الأصفهاني الراغب : مفردات القرآن، ط1، تحقيق : ناصر أحمد بن النجار الدمياطي، مكتبة فياض : المنصورة، 2009م، ص519. وابن منظور : لسان العرب، طبعة مراجعة ومصححة، دار الحديث : القاهرة، 2003م، 455/7.

(2)- سورة محمد : الآية 24.

(3)- انظر : جامع البيان : 13/26/70-71 بتصرف.

(4)- انظر : تفسير القرآن العظيم : 604/5 بتصرف.

(5)- وفي هذا الصدد يقول الزركشي : أصل الوقف على معاني القرآن التدبر والتفكر.واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب ... أو متعمد على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر أو يكون راجعا إلى معقوله. انظر الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله الشافعي) : البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث : القاهرة، 2006م، ص 435 بتصرّف.

الأنموذج الأوّل : ما ذكره الطبري في مقدمة تفسيره في فصل بعنوان :

" ذكر بعض الأخبار التي رويت في الحض على العلم بتفسير القرآن " قال : لقد حث الله –عزّوجل– عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات، بقوله –جلّ ذكره– لنبيه ρ : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾[1]. وما أشبه ذلك من آي القرآن، وهذا يدل على أن عليهم معرفة ما لم يحجب عنهم تأويله من آية، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله : اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان والكلام، إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به. فكذلك ما في آي كتاب الله، من العبر والحكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال اعتبر بها، إلا لمن كان بمعاني بيانه عالما، وبكلام العرب عارفا ؛ وإلا بمعنى الأمر –لمن كان بذلك منه جاهلا– أن يعلم معاني كلام العرب،ثم يتدبره بعد، ويتعظ بحكمه وصنوف عبره. فإذ كان ذلك كذلك، وكان الله –جّل ثناؤه– قد أمر عباده بتدبره وحثهم على الاعتبار بأمثاله، كان معلوما أنه لم يأمر بذلك من كان بما يدل عليه آيه جاهلا[2].

ولذلك قال ابن مسعود τ : «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوز هن،حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» [3].

وقال أبو عبد الرحمن : « حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا أنهم كانوا يستقرؤون من النبي ρ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا »[4].

وقال سعيد بن جبير : « من قرأ القرآن،ثم لم يفسره، كان كالأعمى، أو كالأعرابي »[5].

الأنموذج الثاني : ما أشار إليه حجة الإسلام في الإحياء بقوله :

إن المقصود من القراءة التدبر. قال علي كرم الله وجه : لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها[6].

ولذلك روي عن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها لا يفرغ من التدبر فيها. وقال بعض العارفين : لي في كل جمعة ختمة وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه[1].

---

(1)– سورة ص: الآية 29 .

(2)– انظر : جامع البيان : 1/45–46 بتصرف.

(3)– المصدر السابق : 1/44.

(4)– المصدر السابق.

(5)– المصدر السابق.

(6)– انظر : الإحياء : 1/424.

ولقد مات رسول الله ρ عن عشرين ألف من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة، اختلف في اثنين منهم. وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين. وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام[2] من علمائهم[3] .

وهي مراتب لذلك يردف قائلا : وفيم يتعلق بالنص القرآني الذي لا يتوقف فهم معناه على النقل يقول : « إنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب . ويكون لكل حد في الترقي إلى درجة أعلى منه فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلاما فأسرار كلمات الله لانهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله –عزّوجل–.

فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الإشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يغني عنه »[4]. « فهذه خواطر[5] تفتح لأرباب القلوب » [6].

الأنموذج الثالث : ما ذكره الشاطبي في عدة مواضع من الموافقات :

فهو يؤكد الشاطبي ما قاله هؤلاء العلماء، ويشير كذلك إلى أن التدبر الحقيقي يتوقف على فهم المقاصد الشرعية، وتحصيل أدوات فهم النص القرآني. وهذا هو التدبر في درجته القصوى، لكن ما حظ البسط من المخاطين من هذا التدبر؟

يشير الشاطبي في المقدمة السادسة من كتابه إلى : أن ما يتوقف عليه معرفة المطلوب قد يكون له طريق تقربي يليق بالجمهور، وقد يكون له طريق لا يليق بالجمهور :

فأما الأول فهو المطلوب المنبه عليه، كما إذا طلب معنى الإنسان، فقيل: إنه هذا الذي أنت من جنسه، فيحصل فهم الخطاب مع هذا الفهم التقريبي حتى يمكن الامتثال.

---

(1)– المصدر السابق : 425/1

(2)– ولذلك قال الشاطبي – في معرض حديثه عن ضرورة فهم القرآن الكريم حسب ترتيب نزوله –" ويليه الأنعام، فإنها نزلت مبينة لقواعد العقائد وأصول الدين، وقد خرج العلماء منها قواعد التوحيد التي صنف فيها المتكلمون، من أول إثبات الوجود إلى إثبات الإمامة ... ثم لما هاجر رسول ρ إلى المدينة كان أول ما نزل عليه البقرة، و هي التي قررت قواعد التقوى المبنية على قواعد الأنعام، فإنها بينت من أقسام أفعال المكلفين جملتها،وان تبين في غيرها تفاصيل لها ..." انظر: الموافقات : 2/3/282–283 وانظر موافقة وجهة نظر أحد المفسرين المعاصرين وهو سعيد حوّى لما يقوله هذا العالم المحقق، والتي ضمنها تفسيره " الأساس في التفسير" حيث يقول : إن سورة البقرة أجملت معاني القرآن، وباقي السور على ترتيبها التوقيفي في المصحف مكملة مفصلة لما قررته بإجمال سورة البقرة. في رسالة ماجستير بعنوان "نظرية الوحدة القرآنية في تفسير سعيد حوّى" –تحليل ونقد– للطالبة جميلة موجاري. جامعة الأمير عبد القادر، نوقشت في جوان2001م.

(8)– انظر : الإحياء : 1 /432 بتصرف.

(4)– المصدر السابق : 1 /442.

(2)– فحق إذن لفضيلة الشعراوي أن يسمي تفسيره : خواطر في تفسير القرآن الكريم . لأن التدبر وإن أصاب الحق لا يغلق معه باب التدبر في ذات النص الذي لم يثبت فيه بيان نهائي من النبي ρ أو إجماع الصحابة.

(3)– المصدر السابق : 1/ 443 .

وعلى هذا وقع البيان في الشريعة، وقد بين ρ الصلاة والحج بفعله وقوله على ما يليق بالجمهور، وكذلك سائر الأمور، وهي عادة العرب، و الشريعة عربية، ولأن الأمة أمية فلا يليق بها من البيان إلا الأمّي.

وأما الثاني : وهو ما لا يليق بالجمهور، فعدم مناسبته للجمهور أخرجه من اعتبار الشرع له، لأن مسالكه صعبة المرام، كما إذا طلب معنى الإنسان، فقيل « هو الحيوان الناطق المائت » فهذا أمر لا تعرفه العرب ولا يوصل إلى فهم مثل هذه الأمور إلا بعد قطع أزمنة في طلب تلك المعاني، والشارع لم يقصد إلى هذا ولا كلف به [1].

وإذا كانت تلك إشارات المحققين عن التدبر، وحقيقته، ودوره في فهم المقصود من الخطاب القرآني ؛ فإن أوّل من دعى إلى هذا المنهج بل إلى أعلى مراتبه هو الرسول ρ.

وذلك حينما وجّه نظر من استشكل عليه من الصحابة فهم الظلم من قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾[2] إلى التدبر والنظر في موضع آخر من القرآن يفسّره وهو قوله تعالى : ﴿ **إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم** ﴾[3].

وفي الختام نقول :

لقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده دون استثناء، وكل على حسب ما يملك من القدرة تدبر القرآن الكريم، ليحصل فهم ما يؤول إليه هذا الخطاب فيهتدي إلى الحق، ولن يكون ذلك إلّا بإعمال نعمة العقل والانفكاك من التقليد، فإذا لم يحصل المطلوب من هذا التدبر فالخلل حتما في القفل الذي على القلب

---

(4)- انظر الموافقات : 38/1/1 -36 بتصرف.

(1)- سورة الأنعام : الآية 82.

(2)- سورة لقمان : الآية 13.

- والحديث أخرجه الشيخان عن عبد الله قال : لما نزلت : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ** ﴾ [الأنعام : 82] شق ذلك عل أصحاب رسول الله ρ وقالوا : أيّنا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ρ : « ليس هو كما تظنّون، إنما هو كما قال لقمان لابنة : ﴿ إنّ الشّركَ لظلم عظيمٌ ﴾ [لقمان : 13] » .
- هذا اللفظ لمسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي، ط. المنصورة، الأزهر كتاب الإيمان، باب الإيمان وإخلاصه، رقم الحديث 124، ج1، ص 338.
- وأخرجه البخاري في صحيحه، ط1، دار البيان الحديثة، القاهرة، 1423هـ-2003م، في :
- كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم، رقم الحديث 32، ج1، ص 18.
- وكتاب أحاديث الأنبياء، رقم الحديث 3360 و 3428 و 3429، ج2، ص 141، 160، 161.
- وكتاب تفسير القرآن، سورة الأنعام رقم الحديث 4629 وسورة لقمان رقم الحديث 4776، ج2، ص 424، 476.
- وكتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، رقم الحديث 6918، ج3، ص 337.

﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾ [1].

ومعنى التدبر في اللغة والاصطلاح وفي القرآن الكريم كله يدور حول النظر والتأمل والتفكر فيما يؤول إليه المعنى :

جاء في اللسان :

دبّر الأمر وتدبره : نظر في عاقبته، يقول الشاعر :

ولا تتقون الشر حتى يصبكم ∴ ولا تعرفون الأمر إلا تدبرا

والتدبير في الأمر : أن تنظر إلى ما تئول إليه عاقبته، والتدبر : التفكر فيه[2].

وقال صاحب التعريفات :

التدبر هو النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر تصرّف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب[3].

وما قاله المفسرون : عند تفسير المواضع التي ورد فيها لفظ التدبر بما في ذلك الآثار والأحاديث، وما ذكره المحققون عن هذا اللفظ ومعناه؛ كله يؤكدّ أنّ هذا التدبر درجات، وأوّله التدبر العام وأعلاه التدبر الخاص من طرف الرّاسخين في العلم والعلماء.

وأمّا القول بأن التدبر لا يكون إلاّ من طرف العلماء؛ فذلك يحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه. ولا دليل على ذلك البتة كما قال الشنقيطي[4].

لأن تدبر القرآن وانتفاع متدبره بالعمل بما علم منه الذي دل عليه قوله تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾[5] لا يتوقف على تحصيل الاجتهاد المطلق بشروطه المعروفة عند متأخري الأصوليين[6].

وكل إنسان له فهم إذا أراد العمل بنص من كتاب أو سنة فلا يمتنع عليه. ونصوص الكتاب والسنة التي لا تحصى واردة بإلزام جميع المكلفين بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله ρ. وليس في شيء منها التخصيص بمن حصل

---

(1)- سورة محمد : الآية 24.

(2)- انظر : 289/3 بتصرف.

(3)- انظر : الجرحاني (علي بن محمد السيد الشريف): التعريفات، تحقيق : د. عبد المنعم الحفني، دار الرشد : القاهرة، ص 63.

(4)- انظر : الشنقيطي (محمد الأمين بن محمد المختار الجكني) : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الحديث: القاهرة، 2006، 292/7 بتصرف.

(5)- سورة محمد : الآية 24.

(6)- انظر : أضواء البيان : 287/7 بتصرف.

شروط الاجتهاد[1].

والله تعالى لم يضمن لأحد ألا يكون ضالا في الدنيا ولا شقيا في الآخرة إلا لمتتبعي الوحي وحده. قال تعالى: ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى** ﴾[2]وقد دلت آية طه هذه على انتفاء الضلال والشقاوة عن متتبعي الوحي[3].

ونصوص القرآن والسنة كلها دالة على لزوم تدبر الوحي، وتفهمّه والعمل به. فتخصيص تلك النصوص كلها، بدعوى أن تدبر الوحي وتفهمه والعمل به لا يصح شيء منه إلا لخصوص المجتهدين، الجامعين لشروط الاجتهاد المعروفة عند متأخري الأصوليين فيه نظر[4].

وكل من لم يشتغل بتدبر القرآن معرض يستحق التوبيخ، خاصة إن كان ممن أعطاه الله فهما يقدر به على التدبر، ولذلك اشتكى الرسول ρ إلى ربه من هجر القرآن ﴿ **وقال الرسول يا رب إنّ قومي اتخذوا هذا القرءان مهجورا** ﴾ [5][6].

---

(1)- المصدر السابق : 7/288-289 بتصرف.

(2)- سورة طه : الآية 123.

(3)- المصدر السابق : 7/290 بتصرف.

(4)- المصدر السابق : 7/292 بتصرف.

(5)- سورة الفرقان : الآية 30.

(6)- انظر : أضواء البيان: 7/257 بتصرف. وهذا هو ملخص حكم التدبر الوارد في القرآن الكريم كما جاء في أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.

وثمة عدة بحوث في هذه المسألة مثل :

مبحث مفهوم التدبر وحقيقته والمصطلحات المستعملة عند التدبر من أطروحة دكتوراه بعنوان "تفسير القرآن بالقرآن عند عبد الكريم الخطيب" –دراسة نقدية–، كلية الشريعة، باتنة للطالبة جميلة موجاري (لم تناقش بعد).

- حبنكة عبد الرحمن حسن الميداني:

* معارج التفكر ودقائق التدبر، ط1، دار القلم، دمشق، 2000م.

* قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجل–، تأملات، ط2، دار القلم، دمشق، 1989.

- مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار : مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، بحث من 79 صفحة. ملتقى أهل الحديث. www. Ahlaahadeeth.com